الأديب المسلم بين الالتزام والإبداع*

لمعالي الأستاذ عبدالعزيز أحمد الرّفاعي

هذا العنوان الذي طلب إليّ أن أحاضر فيه ، يحمل في طياته موضوعاً كبيراً دقيقاً ، يثير قضايا متفرعة على جانب كبير من الأهمية .

ومنذ البداية أحب أن أقول ، إنني حين إعداد هذه المحاضرة لم ألزم نفسي بدراسة الآراء التي كتبت عنه ولم أرجع إلى مصدر معينّ استرفده العون عليه ، ذلك لأنني أعرف من قراءاتي ، عبر سنوات طويلة ، طرفا مما دار من محاورات كثيرة عن الأديب الملتزم ، والأديب غير الملتزم ، وهل يكون الفن للحياة ، أم الفن للفن؟ ونظرية الأدب الإسلامي وصلتها بهذه الموضوعات ، على اختلاف وجهات النظر في التنظير والتأصيل . وأعلم أنني إذا دخلت هذه اللجة فقد لا أخرج منها ، ولا

أستطيع أن أعد المحاضرة في موعد معقول . . بل قد لا أستطيع إعدادها مطلقا، وإن استطعت فسأضع السادة المستمعين في غمار مقولات كثيرة، قد يكون بينها المتضاربُ المختلف . . وسيكون موقفي آنذاك هو موقف المستعرض لآراء غيري ومقولاتهم، وقد لا أجد منفسحا للتعبير الكافي عن رأيي الشخصي، اللهم إلا على شكل تعليق هنا وتعليق هناك . . وهذا ما أعدُّه بعثرة للجهد والرأي .

وهذا الاتجاه لا يعني بطبيعة الحال ــ أن أقلل من شأن المقولات السابقة، ولا من أهمية المراجعة، أو الاستئناس برأي غيري، ولكنه يعني أنني سأقدم رأيي المجرد . . وتصوري الذاتي، غير متأثر بآراء مُسبقة، إلا تلك الظلال التي تركتْها في النفس، مطالعاتي القديمة هنا وهناك . . وهي مطالعات غير متخصصة، وليست غزيرة أيضا ولكني أزعم فقط أنها حصيلةُ عمر، وحصادُ سنين طويلة .

وقد يكون فيما أطرحه من آراء شخصية . . لقاءات كثيرة أو قليلة بآراء الآخرين . . أو قد يمس هذا الطرحُ جوانبَ من بحوث تظهر في الساحة الفكرية بين الحين والحين، كما قد يتعارض مع بعض ما يأخذ به بعض المنظرين، ولكن عذري فيما ائتلف وفيما اختلفَ، أنني إنما أعبر عن رأيي الشخصي، وأن علي بطبيعة الحال تبعة هذا الرأي .

ومن الواضح . . أننا حينما نصف الأديب بأنه (مسلم) فإن هذا يعني ضمنا شيئا من الالتزام، إن لم يكن الالتزام كلَّه، بيد أننا لو استعملنا قيداً آخر فقلنا : الأديب المسلم المؤمن بإسلامه، لانتهى بنا الأمر إلى أن مثل هذا الأديب لن يكون إلا ملتزما في فنه التزاماً كاملاً بدائرته الإسلامية . . أي أنه لن يدور في إنتاجه إلا في نطاق الأسس الإسلامية الصحيحة، مهما كان الفرع أو الفروع التي

يعنى بها في إنتاجه الفكري . . ومن الطبيعي ألا يحولَ ذلك مطلقا دون إبداع ، لأن الالتزام الإيمانيَّ لا يجمِّد الفكر ولا يمنعه من الانطلاق إلى أجواء الإبداع ، ولن يحول بينه وبين ارتياد آفاقة أدبية مُحلِّقة .

على أن هذه الدائرة المحددة بالإيمان ، قد تُضيِّق الساحة ولو بعضَ الشيء . . ذلك لأن الأديب المسلمَ ، المؤمنَ بإسلامه على نحو عميق ، كان عملةً نادرةً في كل العصور التي احتواها التاريخ الأدبي ، منذ انبثق الإسلام حتى اليوم ، ويكفي أن نُلقيَ نظرة ولو عابرة على التاريخ العام ، أقول التاريخُ العام ، أي لا أحدده ولا أحصره في الفكر فقط . . لنجد أن عهدَ الالتزام الإسلامي السليم ، بدأ يتضاءل منذ عهد الراشدين ، مصداقا للحديث القائل : «خيرُ الناس قرني ، ثم الذين يلونهم . . ثم الذين يلونهم» .

نحن نعلم أن المجتمعات الإسلامية ، أخذت تترخَّص لأسباب كثيرة ، في الالتزام الإسلامي الذي كان عليه الصحابة وكان عليه التابعون .

وهذا بطبيعة الحال لا يدل على تغيُّر جوهر الإسلام ، فهو هو وسيظل هو هو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكنه يدل على أن ذلك الوهج الباهر الذي صحب ظهور سيد الأنام ﷺ ، أخذ يتضاءل بانطواء حياة الرسول ﷺ ، ثم انطواء عهد الصحابة الذين عَلِقَ بهم الكثير من ذلك الوهج النبوي ، ثم بانقراض عهد التابعين الذين احتكّوا بالصحابة وتأثَّروا بهم .

والسؤال . . الذي قد يتبادر الآن ، ونحن بعد في أول مرحلة من مراحل هذه المحاضرة هو كيف كان مدى الإبداع في ذلك العهد الذي أتحدث عنه . . أعني عهدَ الرسول ﷺ ، وعهدَ الراشدين ، وعهدَ التابعين ؟

ولا أظنني في حاجة للإجابة عن هذا السؤال ، وقد تكفَّل بالإجابة عنه

بإسهاب طويل، أولئك الذين درسوا هـذا العهد من ناحيته الأدبية . . وهو أمر مستفيض تعلمـونه وإن اختلفـت بعضُ النظـريات بين دارسيـة، ولكن ممـا لا مشاحة فيه أن هذا العهـدَ تميز بانشغال أصحابه بالبناء، وبإرسـاء قواعد الدولة الإسلامية، ونشر الدعوة، وتسخير الطاقات للأهداف العظيمة التي انشغل بها العصر.

وأنتـم تعلمون تلـك المقولـة التـي تذهـب إلى أن مستوى الإبـداع في العصر الإسلامي انخفض عما كان عليه في العصر الجاهلي . . ومن البديهي أن القائلين بها إنما يتحدثـون عن الشعـر وحده، أي أن المقـولة لا تشمـل الأدب النثري . . الذي ظـل قويـا متسقا مـع السليقة العـربية، بـل لقد دخلتـه عناصرُ جـديدة صقلته . . يأتي في مقـدمتها البلاغة القرآنيـة التي أمدت اللسانَ العـربيَّ بذخائرَ بـلاغيةٍ غنيـة . . إلا أنـه ينبغـي ألا يفوتنـا أن الكثيرَ مـن هـذا الأدب ذهب بـه النسيان، خاصة قبل عصر التدوين، وحتى في بـداية هذا العصر كانت العناية مركزةً على أنواعٍ من التدوين، كانت الإبداعاتُ النثريةُ هي الأقلَّ حظا فيها.

ولكننا حينما نحصر القولَ في الإبـداع الشعري، فإننـا لا نجد في عهـد صدر الإسلام ذلك الوهـج الذي كان لشعر المعلقات، ولا تلك الكـوكبةَ من الشعراء الفحول الذين اجتمعوا في العصر الجاهلي.

هنا ينبغي أن أبادر بـالقول بأن الإسلام لم يكـن مسؤولا مسؤولية مبـاشرة عن انخفاض مستوى الإبداع في فترة زمنية محددة . . هي فترة الجهاد . . ، بل كانت الأعباءُ العظيمة التي أنيطت بالمجتمع المسلم هي السببَ الحقيقيَّ في الانصراف بعضَ الشيء عن الفـن الشعري ــ أقـول بعضَ الشيء . . لأن هناك نماذج كثيرةً محلِّقةً في شعر هذه الفترة.

أعرف أن هنـاك من النقـاد من حاول أن يقـول إن الأخلاقيـات التي فـرضها الإسلام على الفرد المسلـم ضيّقت دائرةَ الإبداع، أو حجرته، فقـد حرّم الإسلام الخمرة، كما حرم العبـث بالمرأة عبثاً يهدد كرامتها وحصـانتها، ويحوّلها إلى سلعة مباحة. والقائلون بهذا الرأي كأنما يذهبون إلى القول بأن الشعر نباتٌ شيطاني لا ينبت إلا في طينة رطبة لزجة. والقائلون بهذا الرأي يَغْفلون عن حقائق كثيرة رغم وضـوحهـا.. يأتي في مقـدمتهـا أن مـن بين شعـراء المعلقـات من كـانـت لـه أخلاقيات رفيعـة.. وأن هذه الأخلاقيات لم تَحُلْ بينـه وبين الإبداع.. تماماً كما جاء في العصور الإسلامية شعراء كبار، لم تلعب الخمرة بألبابهم.. وليس للُعبة المرأة في حياتهم كبيرُ مكان. ويغفلون عن حقيقة أخرى هي أنه حينما أخذ اللهو والمجـون طريقـه إلى المجتمـع الإسـلامي، في بعـض طبقـاتـه وشاع شيءٌ مـن الترخص في سماع اللغـو، مرويا أو مغنًّـى. أتاح له ذلـك ألوانـاً مـن الإبداع.. ومن المؤكـد أنه يعد مسئـولاً عن تحويل بعـض المواهب من طـرق الجد إلى طرق الهزْل واللهو. أقول: حينما حدث ذلك، لم يَحُلْ دون إبداع الجادِّين الملتزمين.

ولا ينبغي أن ننسى أن المواهـبَ قد تتجمع في فترة زمنية، ثـم لا يتاح تَجمُّعها بنفس الحجم في فترات أخرى. وذلك مـا حصل حقا في العهد الجاهلي، وهو عهدٌ تعـددت فيه الأجيال.. كـالذي حدث في الفترة التـي نسميها الآن عصر العمالقة، أو عهـد العمالقة، التـي ضمت فطـاحلة الأدب والشعـرِ من أضراب شوقي، وحافظ، وطه حسين، والعقاد.. إلى آخـر السلسلةِ الطويلة من أفذاذ الرجال..

والقول بتجمُّع المواهب، لا يُلغـي القـولَ بتـأثير الظروف والمنـاخ الفكـري والثقافي ولكن هذا التأثير لا يَصْنَعُ المواهبَ وإنما يبرزها ويصقلها..

لعل فيما أسلفت من حديث، ما يصلح أن يكون دِهليزا للأهداف التي أود الوصول إليها.

ولعلي أردت الوصولَ بطريقة عفْوية، غير منسقة، إلى أن أقول إن هناك فكرةً خاطئةً، تريد أن تنفي الإبداع عن الأدب الملتزم، أو الأديب الملتزم، أو تريد على الأقل أن تقلِّلَ من قيمة الإبداع الملتزم.. وتجعلَ من الالتزام قيداً ثقيلاً على الإبداع...

وهذا ما أريد أن أنفيه.. وسأحاول جهدي، ألا أكون متأثراً بعاطفتي.. التي ينبغي أن أعترف منذُ البداية أنها مع الالتزام.. ولكني أود أن أناقش النظرية نقاشاً عقلياً مجرداً ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً.

ولا أكتمكم أنني أدرت في داخل نفسي حواراً طويلاً حاولت أن أفترضه بين شخصين متناظرين.. فرأيت أن الحوارَ ربما يطول جداً إذا لم نتفق على نماذج أدبية نتخذ منها محاور للحوار. فهل أنتم معي في هذا المبدأ؟.. إذا اتفقنا على هذا، كان لنا جميعا أن نتفق أيضا على سلامة النتائج التي نتوصل إليها.. وقد يكون من السهل بعد أن نستخلص من تلك النتائج قواعد معيَّنة تصلح فيما بعد أن تكون معايير ثابتة.. قد تقطع الجدَل في هذا الأمر.. أو قد تجعل ملامح النقاشِ فيه أكثر وضوحاً..

بين شعراء الجاهلية شاعران مبدعان، أحدهما من شعراء المعلقات.. هو زهير بن أبي سُلمى.. والآخر شاعر حكيم كان يحلم بالنبوة هو أميَّة بن أبي الصلت.

وكان هذان الشاعران ملتزمين.

أما آية إبداع زهير، فهو أن قصيدته الميمية، ظلت جديدة عبر التاريخ، عبر

هذه القرون العديدة، التي تفصل بيننا وبينه. وقد صاغها صياغة محكمة مجوَّدة، مبتعداً عن الكلمات الغريبة، كأنما كان يريدها حية على الدهر. . فهل حال التزامه بينه وبين أن يكون شاعراً جهيراً؟ كلا فقد أصبح شاعراً لكل العهود. .

قد يعترض معترض فيقول، إن شعر زهير حكمة وليس شعراً غنائياً. . ولهذا المعترض أقول: متى كان الشعرُ الغنائي وحدَه هو شعرَ الابداع؟ إن شعر الحكمة هو شعر التجارب الإنسانية. . وهو الشعر الاجتماعي. . وهو الشعر الذي تجتمع فيه الفكرة والعاطفة معا. . وليس كشعر الغزل مثلا الذي يُعدُّ حديثا عن العواطف وحدها. .

ولو قُيِّضَ لزهير أن يسلَمَ، لوجد في المناخ الجديد، آفاقاً واسعة للتعبير عن نزعته الإصلاحية، ولانداحت دائرة إبداعه.

أما آية إبداع الشاعر الآخر، فهو ما روي عن استحسان الرسول ﷺ لشعره. . وهو استحسان للمبنى والمعنى، وللنهج الالتزامي. . وهذا دأبه عليه الصلاة والسلام، كما هو معروف في استحسانه لشعر الخنساء. . وهي أيضا من شعراء الالتزام.

ومن حيث المبدأ، لا يتسع المجال للاستشهاد وإيراد النماذج الشعرية أو النثرية. . فإني إنما أتحدث هنا عن مشاهير من الإعلام الذين تعلمون من أمرهم الكثيرَ والرجوعُ إلى آثارهم أمرٌ متاح. . وقُدُراتُهم الإبداعية لا مشاحةَ فيها.

إذاً. . لا علاقة بين ظهور الدين الإسلامي، وبين التأثير على الإبداع الشعري، ما دمنا قد وجدنا في الجاهلية نفسها نماذج من المواهب المبدعة من حيث المبدأ ملتزمةً بأخلاقيات معينةٍ تشبه من بعض الجوانب المسلكية تلك

التي جاء بها الإسلام فقد جاء الإسلام ليتمِّم مكارم الأخلاق .

ومن هنا نستطيع أن ننطلق من قاعدة ، يصح تعميمُها وتطبيقُها على العصور التالية : بعد عصر صدر الإسلام ، هذه القاعدة في نظري ، تقول بالبحث عن الموهبة ، فإذا اقترنت الموهبةُ بالالتزام الديني والخلقي . . فإنها قادرة على الإبداع ، ولن يحولَ التزامها بينها وبين الإبداع ، بل لا يقلل منه . . إلا من حيث الحجم ، لا من حيث القيمةُ الإبداعيةُ ذاتُها . . وأقصد بالحجم سعةَ المجال الأدبي . . فإن الشاعر الملتزمَ يتعفف عن الانطلاق إلى ميادينَ لا يراها تليق به ، أو يخشى أن يتأثر به من لا يردعُه من دينِه رادعٌ ، ولا يعصمُه من الفتنة عاصمٌ ذاتي .

وغنيٌّ عن القول ، أن الحجم أو الكثرة الإنتاجية لا تقدِّم أو تؤخِّر في القيمة الإبداعية نفسِها ، وإنما يبحث الناقد الحصيفُ عن مستوى الجودة ذاتِها ، وعن مستوى الإبداع ومعروف في التاريخ الأدبي ، أن من شعراء القصيدة الواحدة من بزَّ أصحاب الدواوين الضخمة .

***

قبل أن نذهب بعيداً . . دعونا نتفق على معنى الإبداع . . نعم ما هو الإبداع؟

لا أريد أن أدخل في متاهات اختلاف التعريفات ، إنما يكفي هنا أن أذكر تصوري عنه . . تصوري الشخصي . .

إذا استطاع الأديب أن يخرج عن دائرة التقليد ، إلى تجديد في الفكر ، وفي المعنى ، وفي الموضوع ، فهو مبدع . . لأنه استطاع أن يبتكر شيئا ينفردُ به ويتميزُ به . . ويلفتُ الأنظار إليه .

إذاً فهناك فرقٌ دقيق، بين الأديب المنتج، بدون أن يكون لإنتاجه أي وجه من وجوه الإبداع . . وبين الأديب المبدع .

ويصادف هنا سؤال: ألا ينبغي أن يكونَ المنتِجُ سواءً كان إنتاجه ــ مبدَعا أو غير مبدَع ــ ألا ينبغي أن يكون ملتزماً . . ؟ إن الدعوة إلى الالتزام واردة، ولكنها قد لا تصل إلى نتائج حتمية . . ومن المؤكد أننا نحبذ الالتزام في كل الحالات، ولكن الحديث هنا، مطلوب عن الأديب المبدع . . وليس عن أي أديب . .

ومهما يكن الرأي في الإبداع، فإنه لا يسعني القولُ بأن الإبداع مستقل عن الالتزام ما دام الإبداع يتعلق بالموهبة القادرة على إيجاده . . أما الالتزام فلا علاقة له بالموهبة . . لأنه يأتي مكتسبا . . أي أنه نتيجة رياضة نفسية، يضع فيها الأديب نفسَه طواعية، مختاراً أن يسلك بأدبه نهجاً ينظر من خلاله إلى مجتمعه، لا إلى ذاته، ولا إلى لـذَّاته . . فهو عملية تضحية ذاتية . أو بتعبير آخر هو (بوتقة) يضع فيها الأديب إنتاجه كلَّه إن استطاع، أو جلَّه . . في أقل حالاته التزاما . . وهذه العملية التي يضطلع بها الأديب، إنما تُشَكِّل في حقيقتها نوعاً من الرقابة الشخصية، التي قد تغدو مع الزمن شيئا كالسليقة . . إن لم تصل إلى مرحلة السليقة ذاتها . . وكما تلاحظون فإن هذه الصفة تُدخل الالتزام مرحلةَ القيد على الأديب . . ولكنه القيد المحرِّك الذي لا يحول دون القدرة الإبداعية، بل يهذبها ويوجهها الوجهة الصالحة . إنه القيد الذي يضارع ذلك الذي تضعه الشرائع والقوانين على الحرية الشخصية لكيلا تطغى على مصالح المجتمع، فتؤدي إلى الفوضى والإباحية . . وتجتاج الحدودَ الأخلاقية التي اعتادها البشر منذ خلقهم الله جلت قدرته . . وميزهم بها عن الحيوان . .

نعم الالتزام قيد، ولكنه قيدٌ محبب، مطلوب، ندعو إليه ونطلبه، ونقاوم كلَّ

من يقاومه، لأننا ندعو إلى الصراط المستقيم في أدبنا وفكرنا، كما ندعو إليه في سائر حياتنا. ولكن.. هنا تبدو مشكلة.. دقيقة.. هي إلى أي مدى يتمكن هذا القيد من نفس الأديب المبدع؟ وهل المجتمع هو الذي يصوغ هذا القيد، أم أن الأديب ذاتَه يختاره؟ بمحض إرادته؟

للجواب عن السؤال الأخير: أعود بكم إلى ما سلف أن قلته قريباً من أن القيد إنما هو رقابة ذاتية تنبع من داخل الأديب الملتزم. وهذا الجواب يعد في الوقت نفسه، جواباً عن السؤال الأول، أي أن المجتمع لا يستطيع أن يفرض القيد الالتزامي على الأديب.. مادام هو نفسُه لم يأخذ به.

وهذا القول ينطبق تماماً على الوازع الديني لدى الأديب المسلم، وهو قد يكون أحياناً وازعاً أخلاقياً إذا لم يكن وازعاً دينياً فالمهم هو وجود الوازع. إذا افترضنا أن الأمر لا يرتبط بالمجتمعات المسلمة وحدها.. مع أن الحديث هنا إنما نقصره على مجتمعنا المسلم وحدَه.

وما دمنا نكِلُ الالتزامَ في مجمله إلى الوازع الذاتي، فإن من الصعب أن نضع حدوداً أو رسوماً للالتزام.. لأنه سيختلف في هذه الحالة من مبدع لآخر.. ولكن تظل هناك دائرة تضم كل التفاصيل في نطاقها، هي مراعاة مصلحةِ المجتمع..

هذه نقطة تحتاج إلى أن أضرب لها مثلا.. فإن الأديب الملتزمَ، يحرِصُ — أن يتحرَّكَ في نطاق التزامه.. فهذا مثلاً الأستاذ أحمد حسن الزيات، من أدباء العصر، كان أديبا ملتزما، أوقف قَلَمَه على خدمة الفكر الإسلامي، وأفسح مجلته (الرسالة) لهذا الفكر، يأتي من كل صوب، أو صد أبوابها في وجوه الهازلين المنحرفين، قدرَ استطاعته.. ومع ذلك كلِّه، فقد يكبو الفارس وقد كبا..

فهل يحق لنا أن نمحوَ كل حسناته لسيئة واحدة . . أو لسيئات قلائل، ثم نضعَه في قائمة غير الملتزمين ؟

أظنكم معي أننا إذا ذهبنا نحاسب أدباءنا الملتزمين بهذا الميزان الحساس، فستخلو القائمة أو تكاد . . فأيُّ الرجال المهذب ؟ ومن ذا الذي ما ساء قط ؟

أقول كما قال شاعرنا : كفى المرءَ نبلا أن تعدَّ معايبه .

الالتزام إذاً مسألة نسبية، ينبغي أن نأخذه باعتدال . . فلا نضيِّق معاييره . . بحيث نخسر أنصاره وأنصارنا . . ولا نوسع هذه المعايير بحيث نُفقده معناه الذي ندعو إليه ونُرغِّب فيه، حفاظا على تماسك مجتمعنا المسلم، ولكي نحفظ لهذا المجتمع فِكْرَه المبدعَ . . إيماناً منا بأهمية الفكر، وبأهمية الإبداع معا . .

لقد ضربت مثلا بالزيات في المتأخرين . . ولكن ما يقال عن (الزيات) يصح أن يقال عن كثيرين آخرين، من السابقين واللاحقين، من أبي محجن الثقفي مثلا إلى آخر من شئتم من أسماء المحدَثَين . . من الذين يمكنُ أن نصنفهم في دائرة الأدب الملتزم . .

ومن وجهة نظري . . لو سُئلت ما هو الشرط الأول والأهم الذي ينبغي أن نضعه ونتمسكَ به لمواجهة التفريق بين الأديب المسلم المبدع الملتزم وبين غيره . . لقلت إن هذا الشرط في نظري هو ألا يتخذ من فكره وقلمه معولَ هدم للأسس الإسلامية القويمة، بأي شكل من الأشكال . .

حينما كنت أكتب هذه السطور، لم يغب عن ذاكرتي ــ كما قلت من قبل ــ ذلك النقاشُ الذي دار بحرارة في عهد من عهود الأدب القريبة في مصر، وفي غير مصر من العالم العربي عن الالتزام . . وإن كنت لا أزعم أن تفاصيل هذا النقاش بحذافيرها كانت ماثلة في خاطري . ولكن هناك بقايا من هذا النقاش ترسبت في النفس . .

ولا أزعم أيضا أن هذا النقاش قد كَفَّ عن التداول . . فهو لا يزال واردا . . بدليل اختيار هذا المركز لهذا الموضوع لكي أتحدث فيه . .

لكن الذين تحاوروا في هذا الأمر من قبلُ كانوا متأثرين، بأصداء معينة في الأدب الغربي وربما عن الأدب الوجودي بالذات . . ولم يُنظر في الفكرة من حيث مبدؤها إلى الجانب العقائدي، ولكن لوحظ فيها أثرُ الفكر على المجتمع سَلْباً أو إيجاباً .

وبرغم ما يبدو من علاقة الفكرة على نحو ما، بما أتحدث عنه اليوم، إلا أننا ينبغي أن نلاحظ الفرق الواضح، وهو نقطة الانطلاق، فنحن إنما ننطلق من فكرة ذات ارتباط وثيقٍ بالعقيدة التي يجب أن ندور في محورها . . في كل مجال من مجالات حياتنا . .

بطبيعة الحال، ليس من هدف هذا الحديث أن يستكثر من النماذج، بقدر ما يهمني أن أعطي أفكاره التي أطرحها اليوم مزيدا من الوضوح . .

كما ويهمني أن أزيل فكرة قد تسيطر على بعض الناس، هي أن الالتزام يحول دون الإبداع . . هذا خطأ مشهور، سبق أن تعرضت لنفيه فيما سبق من حديث . . ولكني أعود إليه، بعد هذه الجولة، لأشبعه بقدر الإمكان حديثا ولعلي أيضا ــ أشبع المتشككين إقناعا .

لقد اتفقتْ كلمة المسلمين على الأئمة الأربعة، واستمدوا منهم فقه دينهم . . وكما نعلم فإن من بين هؤلاء الأئمةِ الفقهاء، إماماً واحداً، له آثار أدبية . . هو الإمام الشافعي . . فكما نعلم جميعاً أنه كان شاعراً . . وله ديوان مطبوع . . وفي هذا الديوان قصائدُ تتسم بالإبداع . . لا يزال من الناس من يحفظها ويرددها، ويستسيغُها صياغةً ومعنىً .

إن غزارة علم الشافعي، وفقهه، وتحقيقاته، لم تَحُلْ بينه وبين الإبداع. إن الحائل الوحيد، إنما نبع من داخل الشافعي نفسِه. لقد ردع نفسه عن الشعر لئلا ينصرف إليه همُّه، ولئلا يكون شغله الشاغل، فيتغلب الشافعي الشاعر على الشافعي الفقيه، ولم يكن هذا هدفَه. ولذلك قال قولته الشهيرة:

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

ونلاحظ أن الشافعي لم يقل أن الشعر يزري بالناس، وإنما نص على الفقهاء أو العلماء، حتى لا يذهب به الشعر إلى فنون من القول، تأتي على حساب علمه. ونحن نعلم أن الشافعي كان حريصا جدا على ألا يشغلَ نفسَه ببَصَلة، لكي لا تفوته من العلم مسألة.

ويفتح لنا الشافعي الفقيهُ الحديثَ عن الفقهاء الأدباء، وهم في الواقع غيرُ قليل. وفي دنيا الإبداع منهم أمثلة ونماذج. تعرفونها، فإن ذكرتها هنا، فإنما أذكرها من باب التذكير بها، ومن باب الاستشهاد إن كان لا بد من مزيد من الاستشهاد.

من المعروف أنه في المدينة وفي غيرها شعراء فقهاء، وأنه كان من هؤلاء الفقيه الشاعر ابن أذينة. عروة بن يحيى (ت نحو ١٣٠ هـ) وقد خاض فيما يخوض فيه الشعراء من غزل وتشبيب (1). فما أزرى ذلك بمكانته ولا بقبول أحاديثه.

وتعلمون أن هناك من اعتنى بأدب الفقهاء. وألَّف في أشعارهم، فعل ذلك في عصرنا الفقيه الأديب الشاعر الشيخ (عبدالله كنون) من المغرب. يرحمه الله، وفعله أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي أبقاه الله. أقول ذلك بغض النظر عن مدى الإبداع في أشعارهم، ولكن من المؤكد أن هناك إبداعاً، وأن الأديب الفقيهَ

لم يحل التزامه بينه وبين القدرة المبدعة . . وإن الفقهاء لمظنةُ الالتزام الشديد .

وكان بودي أن أستعرض معكـم مواقف عدد من مشـاهير أدباء العصر، ممن نسميهـم عمالقة الأدب، وهـم جـديرون حقـا بهذه التسمية . . ولكن عملية الاستعراض ستكون طويلة، وستُخرِج هـذه المحاضرةَ من حيزها، كما أن عملا كهـذا يجدر أن يتم عـن طريـق دراسة معمَّقـة، تـرتكـز على بحوث ومصـادرَ ونماذج . . وهذا أمـر يختلف بطبيعة الحال، عـن هذا الحديث العفـوي، الذي كنت كتبته لكـم بعيداً عن بلدي، وعـن مكتبتي، وإنما أستحضر ما أستحضر عنه، من الذاكرة . . وهي كليلة .

ولكن ذلك لا يمنـع من أن أستعرض معكـم بعض أسماء أولئـك العمالقة في حدود ضيقة بقدر الإمكان، لئلا أصل بكم إلى درجة الإطالة فالإملال .

العقاد: يأتي اسمه في مقدمة أسماء أولئـك العمالقة، وإذا كنت قد ألمحت إلى اسم الـزيات قبلـه، فإنما فعلت ذلـك لاستطراد المنـاسبة، وليـس للترتيب . . فلست أقصد ترتيبا أولياً لأسمائهم، ولا أقصد حصرَهم واستيعابهم .

العقاد، كاتب إسـلامي، وهو في مجمله ملتزم . . وشـاعر خاض فيما يخوض فيه الشعراء . . وقد أبدع فيما كتب، وله من شعره ما يصطبغ بالإبداع . . أهدى إلى المكتبة العربية تراجمَ إسلامية رائعـة، ودافع عن الإسلام فأحسن الدفاع . . فهل يقلل من مكانة التزامه، مـا قد يشوب أدبه من شوائب، بل إن أدبه لم يخل فعلا من الشـوائب، إذا ذهبنا نحاسبه حسابـا عسيراً . . ومعاذ الله أن نفعل . . مادام التزامه قد حقق لنا مكاسب كبرى . . تخلدُ في صفحاته .

وقد يـذهب بعضهـم إلى أن الرافعي يـرحمه الله، مـن أكثـر الأدباء الشعـراء العمالقة التزاما، إن لم يكن أكثرهم على الإطلاق . . وما من شك أن الرافعي كان

شديدَ الحماسة لالتزامه، يصدر فيما يصدر من أدبه عن منهج إسلامي، حتى في غزلياته. . فهو القائل:

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

وقد دخل معاركه تحت راية القرآن. . ولكن أدبَ الرافعي، كان متعدد الألوان فهو كاتب غَزَل، كما هو شاعر غزل. له في النثر (السحاب الأحمر) و (أوراق الورد) وغيرُهما، وله في ديوانه قصائدُ غزلية. . ولكل ذلك في حياته أقاصيص. . فهو لم يتجه بفكرة وأدبه كلِّه إلى منهجه الالتزامي. . وهو لا يستطيع أن يكون إلا كما كان. . فهل يصح أن نحاسبه على كل كلمة قالها. ؟ بما في ذلك مقالتُه عن فتاة الملهى (في اللهب ولا تحترق) هل نفعل ذلك متناسين ما وهبنا الرافعي من التزامه. .؟ ومن دفاعه المخلص عن منهجه. . .؟ كلا بطبيعة الحال. وإنما يكفينا منه ما أعطى. . فهو لم يحاول النيلَ من صروحنا الإسلامية شيئا. . بل لقد بنى. . فإن نشيده المشهور يصح أن يكون نشيد الأمة الإسلامية كلِّها. .

صحيح أن الكلمة المترفة المتألقة، لم تسمح لأدب الرافعي أن يكون أدبا جماهيريا في مجمله. . ولكن لولا هذه الكلمة المترفة المتأنقة، لما ميَّزْنا شخصيةَ الرافعي، ولما وضعناها حيث هي من عمالقة الفكر والأدب. .

لقد حاول خصومُ الرافعي، أن يهدموا مجده، عن طريق التشكيك في تصرفاته الشخصية. . ولكن التاريخ الأدبي لم يُصغ لأقاويلهم. . فإنه إنما يحكم على أدبه وفكره فحسب. .

***

أما وقد ذكرت الزيات، والعقاد، والرافعي. . فقد أصبح من الصعب ألا أذكر شيئاً عن طه حسين. . وكان بودي لو تغاضيتُ عنه. . فإني أعلمُ أن

الحديثَ عنه شائك . . وأنني حينما أتحدث عنه ، لا أرضي خصومَه ، ولا أنصارَه .

فقد تصدى له خصوم ألداء . . حاولوا أن ينالوا حتى من عقيدته . . وتصدى أنصاره فبالغوا في الدفاع عنه . . ومن الإنصاف للرجل وتاريخه ألا نتأثرَ بما قاله هؤلاء ولا أولئك ، وأن نبحث عن الحق المحض فيما بين ذلك . وأن نحكمَ على آثاره وحدَها ، وأن نأخذ في حُسباننا المرحليةَ الفكريةَ التي مرَّ بها فكره . . فقد كان أزهرياً ثائراً على ظروفه القاسية . . ثم رأى الفكر الفرنسي بعينين فرنسيتين أبصر من خلالهما ، وظل كذلك حتى انطوت صفحتُهُ . . وفي غمرة تأثره بالثقافة الفرنسية . . وآراء المستشرقين ، جاء كتابه (في الشعر الجاهلي) ، وكتابُه (مستقبل الثقافة في مصر) ، ثم فاء طه حسين رحمه الله إلى نفسه ، فجاءت كتبه . . (الوعد الحق) و (مرآة الإسلام) ، و(على هامش السيرة) . . وفيها استرد شيئا من روحه الأزهرية . . وهكذا نرى في آثاره أكثر من جانب . . أما ما أُخذ عليه ، فهو محسوب على تاريخه بلا شك . . لنعود فنقول ما قلناه عن غيره : إن الحكم على آثاره ، من حيث الالتزام أو عدمُه ، إنما يكون بتلك المعايير التي أسلفتها ، في عملية الهدم أو البناء . . أما سريرته فإنما نقول فيها كما علمنا أجدادُنا ، حينما خاضوا في أمر بصير آخر شهير أعني أبا العلاء المعري . . فقد قالوا : (وعند الله علم السرائر ، وهو يتولى الضمائر) .

تكلمت حتى الآن عن الأدباء . . ولم أتكلم عن الأداة أو الوسيلة التي يتخذها الأديب للوصول إلى القارىء أو المتلقي ليبلغه تأثيرَه . . اللهم إلا أداةً واحدةً هي الكتابَ وقد جاء الحديث عن الكتاب ، حديثاً عَرَضِيًّا ، وليس مقصوداً لذاته . . ومهما يكن الأمر ، فالكتاب عندي ، وسيلة شخصية ، أي أن

الكتاب هو الشخص . . كما نقول : الأسلوب هو الكاتب .

وإذا كان الكتاب ، هو الوسيلةَ الوحيدة ، التي كانت معروفة قديماً للأدب المكتوب ، الذي يتاح للعموم . . فقد جاءت الصحافة وسيلةً جديدة ، وكان منها ما تخصص بالأدب ، أو الفكر أو الشعر ، فجاءت المجلات الأدبية . . وسيلةً متاحة لعدد من الأدباء ، وليست خاصة بواحد معين . . فما مدى الالتزام في المجلات الشهيرة التي تركت دويّا وتأثيراً في المجتمع العربي المسلم؟

من وجهة نظري ، أستطيع أن أقول ، وأنا مطمئن ، إن المجلات التي أصدرها الشيخ (محب الدين الخطيب) كانت ملتزمةً إسلامياً إلى أقصى الحدود المستطاعة . . وقد ضمت آثاراً كثيرة ، محّصها صاحبها في سلسلة (الحديقة) التي عكست ألواناً من الأدب الملتزم . وقد افتقدنا بعد احتجاب هذه السلسلة ، أدبا رصينا ، عربيَّ النهج ، سليمَ المعتقد .

إن الشيخ (محب الدين) يعدّ مثلا نموذجياً للأديب المسلم الملتزم وها نحن نرى أثره الجيد في الشيخ (علي الطنطاوي) ، وتعلمون أن الشيخ الخطيب ، هو خال (الشيخ الطنطاوي) أبقاه الله ، الذي ساهم في تحرير مجلة (الرسالة) الزياتية . . بل لقد أشرف على تحريرها في بعض الفترات .

لقد خَلَفَتِ الرسالةُ ، مجلاتِ الفتح والزهراء . . وغيرهما من أمثالها وتميزت عنها بأنها استطاعت في بعض مراحلها أن تضم شتات أقلام عمالقة الأدب والفكر والشعر في مصر وفي العالم العربي .

ولكن لم تبلغ في التزامها ذلك المبلغَ الذي بلغه الشيخُ الخطيب . . إلا أن النهج الإسلامي ، كان واضحاً أو غالباً على صفحاتها ، خاصةً حينما ينضم إلى

تحريرها أديب ملتزم بارز النهج، مثل الطنطاوي، أبقاه الله، ومثل سيد قطب رحمه الله.

الحديث عن (الرسالة) يبعد عن الحديث عن (الزيات) وهذا سبق أن ألمحت إليه ونستطيع أن نقول باعتدالِ هذه المجلة وَسلامة طريقها . .

وكما هو واضح، فإني قَصَرْتُ حديثي هنا، على المجلات الأدبية، أو التي يأخذ الأدب فيها مكاناً مرموقاً . . ولذلك لم أتحدث عن مجلات أخرى شهيرة، كانت لها مكانة رفيعة في عالم الفكر الإسلامي، مثلَ (المنار) للشيخ (محمد رشيد رضا)، ذلك لغلبة البحوث الدينية على اتجاهها، على الجانب الأدبي، محورِ حديثنا.

لقد اخترت (الرسالة) مجلةً لأنها أصبحت مدرسة أدبية، أو نهجا أدبياً بعينه لها تأثيرُها في العالم العربي كله.

حقاً إن هناك مجلاتٍ أخرى، عاشت فترات طويلة، وحازت شهرةً عريضة . . كما هو الشأن مثلا في مجلة (الأديب) و(الآداب) البيروتيتين. ولكنني هنا إنما أقتصر الحديث على المجلات ذات النهج الإسلامي الملتزم. أما مجلة الأديب، فكانت مفتوحة الصدر لكل ألوان الأدب. ما جاء جديداً، وما كان قديماً. وإن حرص صاحبها على ألا يصدرَ عن مجلته، ما يغضب جماهير قرائه . .

أما مجلة (الآداب) فقد نشأت من يومها الأول مفتونة بالأدب الفرنسي، وخاصة الوجودي منه، وإن كانت قد دارت في أكثر من مدار.

إذاً، فأنا أستبعد من حديثي المجلاتِ التي لا تدخل في دائرة الالتزام . .

وإذا كنت قد تحدثت الآن عن المجلات الشاملة، فقد يبدو من المناسب، أن أعرج على ذكر بعض المجلات المتخصصة. كمجلات القصة، أو مجلات الشعر، مما يدخل في نطاق الأدب، في الحيز الذي يتبادر مفهومه إلى أذهاننا، وليس بذلك المعنى العام الذي قد يطلقه بعضهم فيريدون به الفكر المطلق.

لقد ظهرت في العالم العربي، مجلاتٌ خاصة بالقصة، كما فعل (الزياتُ) نفسُه، حينما أصدر مجلة (الرواية) لتكون شقيقة للرسالة، ولكنه لم يستطع أن يمضيَ بها قدما فضمها إلى الرسالةِ، ولم تعش إلا زمناً قصيراً..

ولا أستطيع أن أُعطيَكم فكرة دقيقة، عن مدى التزام الزيات في مجلته القصصية، وهل كان يطبق أفكاره الالتزامية عليها بالقدر نفسه الذي كان يمارسه على مجلة الرسالة..؟ ذلك لأنني لم أكن متابعاً جيداً لمجلة الرواية.. إلا أنه قد طال العهد على اطلاعي على ما كان يتيسرُ لي الاطلاعُ عليه من أعدادها.. ولكني أتصور أن الزيات لم يكن ليستطيع الهيمنةَ التامةَ على مجلة قصصية، يجمع مادتَها من كل مكان إبداعاً أو ترجمة.. ولكنه يستطيع أن يضع بعض السدود والقيود.. إلى مدى محدود..

هناك مجلة أخرى متخصصة.. تركت أصداءها على تاريخ الأدب المعاصر، وكان لها أنصارها، ولا يزال منهم بقية.. أو هم بالحرى أنصار صاحبها.. أعني مجلة (أبولو) التي تخصصت بالشعر.. وهي التي أصدرها أحمد زكي أبو شادي. وبالرغم من أن هذه المجلةَ. أيضاً ــ لم تعش إلا فترة قليلة من الزمن، إلا أنها تركت أدبا.. تولى أمرَه ــ كما قلت ــ أنصارُها، وجلهم شعراء.. وكان الشعر وسيلة مؤثرة من وسائل الإعلام.. وكان اهتمامُ الجماهير العربية به أكثر وأكبر.

كانت مجلةُ (أبـولو) ملتقـى عجيباً لـلاتجاهات الشعـرية ، سـواء من حيث التيـاراتُ الفكريـةُ ، أو مـن حيث الأسـاليـبُ البلاغيـة ، أو وسـائل التطويـر والتحديـث ، فقد كان أبـو شادي متحمساً للتجـديد . . وبحكم هـذا الخليط الذي التقى في (أبـولو) ، لا يمكنني القول إنها كانت ذاتَ هـدف ملتزم . . وأنا هنا لا أعتد بما قالـه خصوم (أبولو) ولا بما قاله الأنصـار . . وإنما أعبر عن وجهة نظري قارئاً أتيح له فقط أن يطلع على شيء مـن أعداد هذه المجلة . . وأن يأخذ عنها انطباعا معينا .

***

ولا أود أن أسترسـل في الحديـث عـن مـزيـد مـن المجـلات العـامـة أو المتخصصة . . فليـس هذا مـن موضوعنـا . . ولكني أكتفـي بهذه النماذج التي قدمت .

وما دام الحديث عن النماذج ، فقـد كـان بـودي أن أقدم أيضـا نماذج مـن النصـوص لـلأدب الملتـزم ، والأدب غير الملتـزم . . ولكنـي وجـدت أن إيـراد النصوص ، لا يكفي دليـلاً على التزام الأديب المبدع ذاته في إنتاجـه الشامل . . أي أنني قـد أختار لكم نصـا ما لأديب مـا ، فأجدُ في أدبـه ما يغايـره . أريد أن أقول ، إن العهدة في نظري على الأديب ذاتِه ، وعلى مدى التـزامه . . وأحسبني قد أسهبـت من قبل في الكـلام عن الأديب الملتـزم . . أما النصوص المقـارنة في الموضوع الواحد ، فلا أظنها من بين أهدافنا في هذا الحديث . .

وجدير بالذكر ، أنه قد يحدث ، أن يبـدأ الأديب حياته بمنهج مـا ، ثم نجده قد غيَّر منهجَه إلى آخر يُغَايِرُه . . فقد يبدأ حياته متحرراً من الالتزام ، ثم نجده ، قد عاد إلى الالتزام عن اعتقـاد سليم صحيح ، فوجدنا مغايرةً تـامة ، بين إنتاجه

في المرحلتين، بحيث يعدّ أخذ نموذج ما من أدبه مسألةً دقيقة . . ينبغي أن يَتحرى فيها الباحثُ المرحلةَ الأدبية المعينة . . وكذلك الأمر في ذلك الأديب الذي يبدأ حياته ملتزما، ثم ينتقل إلى مرحلة مناقضة لما سلف من حياته، ولما سلف من إنتاجه . . وينطبق عليه ما ينطبق على صاحبه أعني الانقلابَ إلى الضد .

والفروق في مستوى الإبداع، ارتفاعاً وانخفاضاً، هذه أيضا لا تعطي فرصة متكافئة للحكم على الأثر الأدبي . . ولكننا نستطيع . إذا نحن غضضنا الطرفَ عن الجزئيات ونماذجها أن نصب أحكامنا في المقارنات، على تقارب المزايا الإبداعية . . مثال ذلك شوقي وحافظ . . فقد درج الكثير على أن يقرنوا اسميهما معا . . وكأنهما في مستوى واحد من الإبداع . . مع أن النقاد المتخصصين لا يضعونهما في درجة واحدة . . فعبقرية شوقي عبقرية مبدِعة . . لا تصل إليها سليقةُ حافظ على تدفقها . . ولكن هذه السلقية المطواعة جعلت اسمه مرادفاً لاسم شوقي . . وجعلتهما كفرسي رهان . . ولكن شوقي كان هو السابق الأول .

أَخلُص من هذا أن محاولةَ تقنينِ الأدب الملتزم والحكمِ على الأديب الملتزم، عملية صعبة معقدة . . تضع الباحث في حيرةٍ حقيقية . . للأسباب التي ذكرتها، ولأسباب أخرى لم أذكرها، لأنني لست بسبيل وضع دراسة مستوعبة شاملة، ولكني ــ وكما أسلفت ــ إنما أطرح بين أيديكم خواطري وتصوراتي التي يعوزُها حتى الترتيب والتنسيق بله الشمول والتوفيق .

هناك ما يمكن أن اسميه الالتزام التلقائي . . وهو ذلك الالتزام العفوي النابع من ذات الأديب . . تصدر عنه أعماله الأدبيه، دون أن يكون هناك قصدٌ مسبق

عند كل عمل أدبي بحيث يرْسم الالتزام عند التخطيط لـه . . أو حتى إدارته في المخاض الفكري وهذا على تفاوت نسبته هو الذي يشكِّل المناخ الذي عاش فيه ــ أدبنـا وأدباؤنا عبر تاريخنا الأدبي كلِّه . . ومـن الطبيعي أن نستثني الحالاتِ أو الأدباءَ الذيـن كان الالتزام منهجاً مـدروساً لديهم ، وخطاً يضعـونه في الحسبان قبل إنتاج أي أثر أدبي . . وهذا ما يمكن أن أسميـه بوادرَ إخضاع الفكر لنظرية أدبية ، إن لم تتبلورْ من قبل فإنها تحاول أن تتبلورَ الآن .

ومهما يكن الأمر، أعني سواء أجاء الالتزام عَفْويا . . أم نتيجةَ تخطيط مسبَّق ، فاننا حتما نغتبـط بالنتائج كلما اقتربت من الهدف السليـم الذي نود مخلصين أن يستقيـم عليه أدبنـا ، ليس فقـط في ألوان الأدب التقليـديـة التي عـرفناهـا عبرَ القـرون ، بـل حتـى في المستحـدَث مـن أغـراض الأدب كـالقصـة والـروايـة والمسرحية . . وأنـا على يقين أن الالتزامَ في هذه الألوانِ المستحـدثةِ لن ينـالَ من مستوى الإبداع ، متى توفرت الموهبة الأدبيةُ العالية ، مادامت الموهبةُ هي الركيزةَ الأولى ، بحسب المقدمات التي أسلفتُها .

***

أعود بكم إلى ما ألمحت إليه عما يلابس هـذا الموضوع من تعقيد ، لأصارحكم ببعض ما وقر في نفسي وأنا أعد هذا الحديث . .

عندما ذكـرتُ اسم طـه حسين ، أشرت إلى بصير آخر دوّت شهـرته في العـالم العـربي والإسلامـي ، واجتازت حـدودَها إلى الفكـر العالمي ، أعنـي أبا العـلاء المعري .

لو أردنا أن نصنف هذا المفكر الكبير المبدِع ، من حيث الالتزام فأين نضعه ؟ نحن نعلم المؤاخـذات الكثيرة التي سجلهـا التاريخ عليـه . . بل لقـد سجلها

هو على نفسه . . ونعلم أن الرجل كان شاكاً . . وأنه حاول أن يثبت شكوكه أيضا . . ولكننا مع ذلك نعلم مدى تلك الحيْرة التي تأخذ بتلابيبه . . ونعرف أنه كان يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . كان يحرص على أداء صلواته، وهو الذي يقول مخاطبا:

لكِ أوقاتي فخليني إذا قمتُ أُصلِّي
ودعيني، ساعةَ فيكِ لمولايَ الأجلِّ

ويقول:

خُذوا سِبَرى فهن لكم صلاح   وصلوا في حياتكم وزكوا
ولا تُصغوا إلى أخبار قوم   يصدّق مينَها العقلُ الأركُّ

ولم يشرب الخمرة قط، بل له رسالة في الحث على اجتنابها اسمها (خماسية الراح).

ورووا عنه لما حضرته الوفاة، كان آخرَ ما سُمعَ منه، قوله: اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل.

معنى ذلك أن خواتيم الأمور، وخواتيم البشر، بيد الله عز وجل، وأننا في المحاكمات الأدبية لا نملك أن نحكم على الآثار ذاتها . . وعندما تتضارب هذه الآثار من حيث الالتزام، سلباً وإيجاباً . . لا يسعنا إلا أن نعمل بما جاء في الأثر: الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها التقطها.

***

وإذا تركنا الحديث عن الماضي، سواء ما كان منه بعيدا على عهد أبي العلاء، ومن قبله ومن بعده، أم قريباً على عهد طه حسين . . وركّزنا على الحاضر، وعلى

تطلعاتنا إلى المستقبل، فإن من المهم طبعاً أن نبث الدعوة إلى الأدب الملتزم، وأن نبذلَ في سبيلها كل ما نستطيعُ من جهد. . وأن تُدخلَ هذه الدعوة في العملية التربوية، وأن تتولاها وسائلُ إعلامنا، وأن تخضع هذه الدعوة لدراسات موسعة تُعقد من أجلها المؤتمراتُ والندوات. . ولكنني لا أحب أن تأخذ الدعوةُ شكلَ مذهبية فكرية، تستثير عليها المذاهبَ المضادة، يكفي أن نوقظ الوعي العَقَدي. . أعني وعيَ العقيدةِ الإسلامية، التي تعكس الالتزام الأكبر الذي ينبغي أن تصدرَ عنه جميعُ تصرفاتنا. والأدب جزء من هذه التصرفات، وسنجد أننا حققنا الالتزام التلقائي الذي نتمناه، لا الالتزام المتكلّف الذي قد يصدر عن غير اقتناع تام. . ذلك أننا نجد على الساحة العربية العريضة كثيراً من المنتمين إلى بعض التيارات والمذاهب الأدبية، ينتمون إليها إما استهواء، وإما من باب ركوب الموجة الرابحة.

وإذا حققنا تحبيبَ الالتزام التلقائي إلى أرباب الأقلام، وتحقق توفرُ الأديب المسلم الملتزم، سنجد أننا وفرنا القدرةَ على الإبداع الملتزم في جميع ألوان الأدب، القديمةِ والحديثةِ على السواء. . أي أننا سنجده في القصة والرواية والمسرحية. . وغيرها.

أما بعد. . .

فقد طرحت بين أيديكم خواطري وأفكاري، عن هذا الموضوع الحيوي طرحا عَفْويا، فجاءت مبعثرة. . لا يَنْظِمُها سلك، وقد قدمت إليكم عذري، وكررته على مسامعكم. . ولكني سأحاول أن أخرج ببعض الكليات، بغَضِّ النظر عما ورد منها خلال حديثي أو ما لم يرد. . فعسى أن تجدوا في هذا التركيز بعض التعويض عن هذه الثرثرة الطويلة التي تطرّق إليها الحديث:

١ إن الالتزام مطلب أساسي تفرضه عقيدتنا ، يجب أن يتوفر في المجتمع كلِّه ، ولدى جميع العاملين به .

٢ وينبغي أن يكون مطلبًا مؤكداً لدى المفكرين والمنظِّرين والأدباء والكتاب والإعلاميين لعلاقتهم بالتوجيه الاجتماعي .

٣ إن الالتزام لا يتعارض مع الإبداع ، لأن الإبداع ركيزته الأولى الموهبة . . والموهوب قادر على الإبداع الملتزم .

٤ إن الإلتزام قد يضيِّق حدود الإبداع ، ولكنه حتما لا يضيقُ به ، قدرة على المجال الرأسي ، إن فاته المجال الأفقي . فهو يحقق شموخا إن فاته الشمول .

٥ أننا إذا حاولنا أن نجعل الالتزام مذهباً فكرياً ، فإننا نحجر حيزَّه ، ونحرِّض عليه . فالالتزام في نظري دعوةٌ وليس تنظيماً .

٦ إن المحاكمات الأدبيةَ التاريخيةَ التي تركِّز على التعرف على مدى الالتزام عند أصحابها أمر لا طائل تحتَه .

٧ إن المعيار الصحيحَ ينبغي أن يرتكز على قبول الفكر قبولاً عاماً ما لم يدع إلى ضلال أو انحراف .

٨ إن الإبداع عمليةٌ فكرية منفصلة عن الالتزام .

٩ إن الالتزام لا يستغني عن الإبداع . . ليكون مؤثراً وقادراً على الاجتذاب .

١٠ أنه لا يمكن أن يحكم على الأديب من خلال نماذج محدودة من آثاره ، لأن الفكر يتجدد والخَواطر تتناقض . والأديبَ ذاتَه يمر بمراحلَ فكريةٍ متعددة .

١١ إن السوق الأدبية تشمل الغث والسمين ، و إن المُتَلَقِّي هو الذي يملك

الاختيار وإن اختياره على مقدار الوعي الذي يزوده به المجتمع ، أو المناخ ، أو التربية .

١٢ أنه من الصعب وضعُ معايير معينةٍ للعمليات الإبداعية في ألوان الأدب ، لأن العملية النقدية ذاتَها معقدةٌ . ولكن نجاحَ العملِ الأدبي الملتزم ـــ مهما كان نوعه ـــ إنما نتقبله ، ما لم يتعارض مع معاييرنا الالتزامية العامة ، مع اشتراط توفر نسبة نرتضيها من الإبداع .

و . . . سبحانك اللهم وبحمدك ، ونُصلّي ونُسلّم على صاحب جوامع الكلم سيدنا مُحمَّد ،

○○○

* محاضرة ألقاها معالي الأستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض ، يوم الإثنين ١٤/ ٦/ ١٤١١هـ ، الموافق ٣١/ ١٢/ ١٩٩٠م .